# المدرسة الظاهرية في حلب [1]

للأستاذ أكرم ساطع

اتخذ المسلمون مساجدهم للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه ، والحديث وفنونه ، وعلوم اللسان وما يتعلق بذلك من المطالب التي فيها أمورهم وخدمة دينهم ولغتهم . وظلوا على ذلك في الشام الى أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

وفي عهود الدولتين النورية والأيوبية ودولة المماليك في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع ، شرع الملوك والسلاطين في بلاط الشام ومصر يبنون المدارس والجوامع والبيمارستانات والخانات والزوايا . ونرى مآثر لصلاح الدين وأخيه العادل أبي بكر وولديه ، وكذلك للظاهر غازي صاحب حلب ولابنه وأحفاده من الأيوبيين ولأتباعهم من أمراء وقواد وعتقاء وحتى لزوجاتهم أيضا . لكل من هؤلاء بناء أو عدة مباني تضم أروع فن الريازة العربية والهندسة المتقنة . وكما يقول بروكلمان : فقد كان العهد الأيوبي عهد بركة وازدهار في مصر وسورية حتى بعد وفاة صلاح الدين .

فتأسيس المدارس في عهد الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب قد بلغ أوجه في مدينة حلب ، وقد درّس في هذه المدارس أجلة علماء الشهباء والوافدون عليها من الأئمة . ولا ريب

---

(١) أنظر قائمة المصادر في آخر المقال .

ان وجودها كان تأكيداً لرغبة المسؤولين في ذلك العهد على إزالة معالم التشيع وإقامة بدلاً منها معالم التسنن ، إذ لم تكن الحركة الثقافية التي نشأت في هذه البلاد في معزل عن الأحداث التي كانت تدور حولها .

من العسير أن نلم في هذه العجالة بجميع الثروة التي خلفها الأيوبيون في عمارة حلب ، وسيقتصر البحث على بناء المدرسة الظاهرية ، وهي مثل حي ، ونموذج كامل للمنجزات الأيوبية في عهد الظاهر غازي . ويذكر ابن خلكان : أنه كان محباً للعلماء ، مجيزاً للشعراء ، أعطاه والده مملكة حلب في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة بعد أن كانت لعمه الملك العادل .

ويحدثنا الملك المؤيد أبو الفداء حاكم حماة أن مدة حكم الظاهر في حلب كانت إحدى وثلاثين سنة . فعمل خلال هذه المدة على جمع البيت الصلاحي ، وقرب الفقهاء والقضاة فكان لهم في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة . أما ابن الأثير فيقول عنه : ... له مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء ، وأهل الدين ، فيكرمهم ويجري عليهم الجاري الحسن .

وفي سنة إحدى وتسعين يعني وخمسمائة اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ( المعروف بابن شداد ) بخدمة الملك الظاهر ، وقدم إليه ، الى حلب فولاه قضاءها ووقوفها ، وحل عنده في رتبة الوزارة والمشاورة ، فاعتنى أبو المحاسن هذا بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها ، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة ، منها ما خصص للشافعية وبعضها للحنفية والبعض الآخر للمالكية ، ومنها ما كان مشتركاً بين أكثر من مذهب واحد ( كالمدرسة السلطانية ) (١) .

هذا ويجدر بنا أن نعدد أسماء بعض المدارس الشافعية التي كانت خارج السور ، فكان أولها المدرسة الظاهرية ، والمدرسة الهروية ، والمدرسة البلدقية ، والمدرسة القيمرية ، ومدرسة الفردوس ، ومدرسة الحموي .

ومن سوء الطالع أن أكثر هذه المدارس لم يكتب له البقاء ، فقد امتدت إليها أيدي

---

(١) الكائنة تجاه باب القلعة ، ويقول الغزي في نهر الذهب ( ج ٢ — ص ٢٩٩ ) الظاهرية شبيهة بالمدرسه السلطانيه ، الـكائنه تجاه باب القلعه ، كأنما أفرغتا في قالب واحد ، سوى أن السلطانيه أصغر منها .

العابثين والمخربين في أيام العثمانيين ، كما هي الحال في مدارس دمشق . ولعل وجودها خارج سور المدينة ، في حارة المقام ، في مكان متطرف من المدينة قد أتاح المجال للتمادي في الاهمال والتخريب ، فأخنى عليها الزمان ، وجارت عليها الأيام ، فبقيت متهدمة مهجورة بعد أن كانت منهلاً لارتشاف العلم ولتخريج الفقهاء والقضاة والعلماء .

يحدثنا بعض المؤرخين والباحثين أن أول من اضطلع بإدارتها هو ضياء الدين أبو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن عبد الرحمن بن العجمي ، وأن السلطان الملك الظاهر حضر درس الافتتاح وأقام حفلة استقبال كبرى حضرها القضاة . في حين يحدثنا ابن الشحنة ، الذي كان مدرساً في المدرسة الحلاوية سنه أربع وعشرين وثمانمائة ، أن عمارة المدرسة الظاهرية انتهت في سنة عشرة وستمائة ، أي بعد وفاة الملك الظاهر .

أما هورزفيلد فيرى أن مشروع البناء قد توقف بوفاة الملك الظاهر وأن حالة البناء توضح لنا جلياً اللحظة التي أوشكت فيها المدرسة على الانتهاء ، وأن الاعمال العمرانية في البناء قد توقفت ، ومشروع الكتابة على الجدران لم ينفذ ، كما أن الكتابة التزيينية التي أعدت لتأخذ مكانها أمام القوس الحامل للبـــاب لم تنجز . وهكذا فإن وفاة المؤسس كانت سبباً لعدم تنفيذ الكتابة .

ومهما يكن من أمر فقد قيض الحظ لهذه الآبدة التاريخية ، أن تقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف ، منذ مدة وجيزة ، بالعمل على ترميمها بعناية ورعاية ، لتعيد إليها مجدها الغابر ، ولتحدثنا من جديد عن جلالة قدر بانيها الأول .

## هندسة المدرسة ومخططها :

إذا أجال الزائر نظره في أطراف المدرسة الظاهرية ، يشعر لأول وهلة بنزعة عاطفية ، وروحانية سامية ، وتجرد ورغبة في البساطة والإتقان ، وبعد عن الأناقة والزخرفة .

يرى أقسامها الرئيسية واضحة المعالم ، على الرغم من أن جانباً منها قد تهدم : فالمصلى ، وأماكن التدريس ، وأماكن سكنى المدرسين ، وسكنى الطلاب ، والصحن ، والمدفن ، والأروقة ، والمطبخ . . . الخ . كل هذه العناصر لا تزال تشير الى الأسلوب المعماري الأيوبي الرصين ، بوضوح تعبيره وتقشفه .

ولا يخفى أن البساطة في المظهر ، شيء مألوف بالنسبة للفن الأيوبي ، كما أن الزهد بالزخارف لم يكن نتيجة عجز وإنما كان نتيجة رغبة في الزهد ، وتقرباً من المذهب السني الذي يمتاز ببساطته ونقاوته وبعده عن الاناقة .

إن بناء المدارس خارج إيران انتقل بأسلوبه وطابعه المعروف بإيواناته الأربع الى مصر والمغرب وسورية . بيد أنه في سورية لم يطبق بحذافيره ، بل انتقل بشيء من التطور والتعديلات الكثيرة . ولعل ذلك ناشيء عن أنه لما ظهرت المدارس في سورية الشمالية ، كانت تقاليد العمارة قد وطدت دعائمها ، وفضلت أن تستوحي أسلوبها من أسلوب بناء البيوت الخاصة المحلية فتطورت في هذا الاتجاه . لذلك نرى قاعات الدرس في العهد الأيوبي وما بعده قد استقل بعضها عن بعض ، وبالتالي توفرت عناصر جديدة لسكنى الطلاب وأخرى لسكنى المدرسين ، ومدفن لباني المدرسة .

وهذه المدرسة أقيمت على مستطيل طوله ( ٣٨ ) م وعرضه ( ٢٩٫٥ ) م . واجهتها الرئيسية متجهة نحو الشمال ، لها مدخل واحد يحتل القسم الأوسط من الواجهة المذكورة ، كما هي الحال في بعض المدارس الدمشقية الأيوبية ( العادلية والركنية ) .

إذا تصورنا خطاً يمر في منتصف الصحن من الشرق الى الغرب ليشطر البناء شطرين ، نجد القسم الجنوبي يشتمل على مصلى ، يتوسط الجهة القبلية ، يتقدمه رواق ليفصل بينه وبين الصحن . طول القبلية ( ١٤٫٧٥ ) م عرضها ( ٣٫٥ ) م ، تعلوها قبة متطاولة قليلاً ( بصلية الشكل ) بقيت من الآجر ، محمولة على رقبة تتألف من أربعة سراويل ، تنتهي في الأعلى بثمن تتكسر زواياه على شكل معينات لتساعد على الانتقال الى الشكل الدائري . أما المحراب فإنه يعتبر من سلسلة المحاريب الحلبية التي عرفت في نفس العصر والأسلوب ، فقد بني بكامله من الحجر الاصفر المصقول ، البديع الصنع موقعه في وسط القبلية ، وهو يتألف من حنية عميقة حفرت في الجدار الجنوبي بعمق ( ١٫٢٥ ) م ، مكسوة بصفائح من الرخام الابيض . وتعلو هذه الحنية نصف قبة ذات عقد مدبب تحمل زخارف منحوتة على شكل خيوط رفيعة ومتناوبة حيث تشكل في النهاية صدفة .

هذا ويحتل ركني الحنية عمودان صغيران من الرخام ، طول كل منهما ( ١٫٩٤ ) م وارتفاع قاعدته ( ٠٫٣٧ ) م وطول جزءه الاسطواني ( ١٫٥٤ ) م . يعلوه تاج كورانثي منطود بارتفاع ( ٠٫٣٢ ) م .

ورغم طابع البساطة والرصانة المسيطرين على البناء فإننا نجد هنا أعمال نحت دقيقة ، وتيجاناً كورنثية ، وزخارف هندسية منقوشة على الحجر الأصفر المصقول ، وهي بعيدة كل البعد عن الأشكال الهندسية التي كانت شائعة في الزخارف الساسانية والبيزنطية ، مثل الدوائر والعصائب والجدائل المزدوجة والخطوط المتشابكة . والذي نجده هنا التراكيب الهندسية ذات الاشكال النجمية المتعددة الاضلاع ، وهي المعروفة عادة في زخارف السقوف والتحف الخشبية والنحاسية ، وفي الصفحات المذهبة من المصاحف والكتب وغير ذلك .

وعلى جانبي المحراب نافذتان تحققان التناظر المطلوب ، أبعاد كل منهما (١،٩٠) م طول (٠،٩٠) م عرض ، ومن المصلى يمكن الخروج الى الرواق الجنوبي عن طريق ثلاثة أبواب عرض فتحة كل منها (٢،٦٥) م . والرواق الجنوبي الذي يفصل المصلى عن الصحن يبلغ عرضه (٣،٥٠) م يتألف من ثلاثة عقود (أقواس) مدببة محمولة على عامودين من الحجر كل منهما ذو قطعة واحدة ، طوله (٣،٣٠) م يحمل تاجاً جميلا . وهذا التصميم مألوف كثيراً في أروقة المدارس الايوبية .

إذا انتقلنا الى الجناح الشمالي فلا بد لنا أن نبدأ بالحديث عن المدخل الرئيسي وهو المدخل الوحيد للمدرسة ، يمتاز بفخامته ، وارتفاعه البالغ ٩ أمتار ، وهو على شكل إيوان عرضه (٣،٢٠) م . تعلوه نصف قبة معقودة بمقرنصات جميلة ذات عدة صفوف مؤلفة من قبيبات ومحاريب تتضاءل في الصغر كلما اتجهت الى أعلى ، الى أن تنتهي بصدفة . وتحف بالعقد زخارف هندسية ذات أشكال نجمية متعددة الاضلاع ، نقشت على الحجارة . وفي ذروة العقد نقش المهندس المعماري اسمه على الحجر ضمن شكل معين تقريباً [1] ، ومن سوء الحظ أن هذا الاسم والكتابة انتقلت إلينا مشوهة .

أما الباب فيبلغ عرضه (١،١٠) م وارتفاعه (٢،٢٠) م . لفتحته إطار محدد وفوق الساكف عقد عاتق ليخفف توزيع الثقل . هذا ونلاحظ الحجارة الجرداء الملساء المحاطة باطار والتي أعدت في أعلى المدخل وعلى جوانبه العلوية لتنقش عليها الكتابة النسخية والمألوفة في العصر الأيوبي والتي تجمع عادة غايتين في آن واحد ، غاية تزيينية وأخرى تأريخية .

ومن الباب يدخل الزائر في دهليز صغير بطول (٢،٤٠) م وعرض (٣،٢٠) م مسقوف

(١) انظر الشكل رقم ٣

بعقد مغموس . وعلى يمين هذا المدخل ويساره يقع إيوانان أبعاد كل منهما ( ٣،٩٠ × ٣،٢٥ ) م وهما يحققان التناظر المطلوب مع المدخل كما يشابهان الإيوانات المعروفة في بناء مدرسة الفردوس ومشهد الحسين .

والى جانب الايوان الشرقي في القسم الشمالي ، مدخل ضيق يتجه نحو الشمال ليؤدي بنا الى المطبخ والبئر التي تزود المدرسة بالمياه . هذا ولا بد من وجود رواق هنا يقابل ويماثل الرواق الجنوبي ، حيث لاتزال بقايا أعمدته وأقواسه ملقاة على الارض .

أما الجهة الغربية من الصحن فإنها تشتمل على قاعة كبرى مستطيلة الشكل أبعادها ( ١٥،٨٥ ) م طول ( ٤،٨٥ ) م عرض ، مدخلها من الرواق الجنوبي يبلغ عرضه متر واحد وللقاعة أربعة نوافذ ، اثنتان منها تطلان على القبلية ، عرض كل منهما متر واحد ، والأخريان تطلان على الصحن بعرض ( ١،٣٥ ) م كما أن لهذه القاعة أيضاً نافذة غربية تطل على الطريق بعرض ( ٠،٩٠ ) م وتعلو قاعة التدريس هذه قبتان ، بنيت كل منهما من الآجر ، إلا أن الشمالية أكبر من الجنوبية ، ورقبتها الدائرية ترتكز على ستة عشر مقرنصا ، فتح في ثمانية منها بالتناوب ثمان كوات صغيرة لتسمح بدخول النور الى القاعة بقدر كاف . وتعلو هذه المقرنصات زخارف هندسية من الآجر ، لا نجد لمثلها شبيهاً في بقية القباب ؛ أما القبة الجنوبية الغربية فإنها تعلو المدفن الذي يحتل الركن الجنوبي الغربي من المدرسة ، والقبة هذه تناظر القبة الأخرى الكائنة في الركن الجنوبي الشرقي من البناء . هذا ويلي قاعة التدريس من الجهة الشمالية أربعة غرف مستطيلة الشكل طول كل منها ( ٥،٤٠ ) م وعرضها ( ٢،٣٠ ) م ويبلغ عرض مدخل كل منها ( ١،١٠ ) م . في كل غرفة نافذة ضيقة مطلة على الطريق بعرض ( ٠،٥٠ ) م ثم تضيق لتحدث شقاً طولانياً في الجدار بعرض ( ٠،١٠ ) م وهي أشبه بالشقوق الموجودة في الحصون والأبراج والتي اعدت لرمي السهام . ويلاحظ في صدر الغرفة أو في جنباتها مكان مخصص لوضع المتاع والحاجات . ولعل هذه الغرف قد خصصت لسكنى المدرسين وذلك لأنها أكثر سعة من الغرف العلوية في الطابق الثاني حيث نجد هنالك صفين من الغرف يفصلهما ممر ضيق عرضه ( ١،١٥ ) م . أبعاد كل غرفة في الطابق العلوي ( ٢،٣٠ × ٢،٣٠ ) م وكل صف يشتمل على ست غرف متجاورة .

ويلي حجرات الأساتذة من الجهة الشمالية مدخل بعرض متر لا يلبث أن ينعطف فجأة لينتهي بدرج يؤدي الى غرف الطلاب والأسطحة .

أما الجهة الشرقية فيحتل ركنها الأوسط ، إيوان يطل على الصحن ، عرض واجهته ( ٥،٩٠ ) م وهو من الايوانات المعروفة في المدارس الأيوبيه المعاصرة ، كمدرسة الفردوس . والى جانبه الايمن غرفة مستطيلة الشكل أبعادها ( ٤ ) م طول ( ٢،٣٠ ) م عرض . في صدرها فجوة حفرت في الجدار وأعدت لوضع المتاع والحاجات الاخرى . ويلي هذه الغرفة جنوبا ، مطلع درج ، يؤدي إلى الأسطحة ، والى جانبه غرفة تشبه إحدى الحجرات المخصصة للمدرسين طولها ( ٤،٥٠ ) م وعرضها ( ٢،٩٠ ) م لها نافذة مماثلة للنوافذ التي تحدثنا عنها آنفا والموجودة في غرف المدرسين . ولا بد للداخل الى هذه الغرفة من المرور أولاً في الرواق الجنوبي .

وتحتل الركن الجنوبي الشرقي من البناء قاعة مربعة الشكل تقريباً تعلوها قبة بنيت من الآجر ، وهي على شكل قبة مناظرة لها في الجهة الجنوبية . ويظن هرزفيلد أن هذه القاعة أعدت لتكون مدفنا . ويلي الإيوان الأوسط ، وعلى يساره غرفة مستطيلة ، طولها ( ٥،٤٠ ) م وعرضها ( ٢،٥ ) م فيها مكان مخصص لوضع المتاع والحاجات الاخرى . والى جانبها غرفة أخرى أصغر منها ومشابهة .

أما صحن المدرسة فهو واسع الرحاب ، جميل الصنعة ، مستطيل الشكل ، طوله ( ٢١ ) م وعرضه ( ١٤،٧٠ ) م ، بلطت أرضه بالرخام وحجر البازلت الاسود المتناوب على شكل أحازيز متصالبة مع الرخام الابيض بحيث تترك بينها أشكالاً هندسية مثمنة الزوايا ونجوماً بأربعة أضلاع . وفي وسط الصحن بركة ماء على شكل مستطيل أبعاده ( ٥،٤٠ × ٧،٩٠ ) م بنيت من الحجارة الضخمة التي ربطت ببعضها بشكل محكم . تبتعد البركة عن الرواق الجنوبي بمقدار ( ٥،٤٥ ) م وعن الرواق الشمالي ( ٧،٦٥ ) م .

وأخيراً يمكن أن نستنتج من بقايا هذه المدرسة ، وعلى ضوء أعمال الترميمات التي تقوم بها المديرية العامة للآثار والمتاحف أن مواد البناء التي استعملت فيها كانت من الحجارة المنحوتة الكبيرة في الواجهات الاربع ، وهذا ليس غريباً عن الابنية الايوبية ، فارتفاع السافات ( المداميك ـ السواقات ) في هذه المدرسة يتراوح بين ( ٠،٤٥ ) و ( ٠،٥٥ ) م كما نشاهد الحجر المنحوت أيضاً في عقود الايوانات وواجهات الغرف . أما الآجر فقد استعمل في الاقسام الاخرى من البناء لا سيما في القباب والاقسام العلوية للجدران وغطي بطبقة من الكلس ، بينما استعمل الحجر غير المنحوت في الاقسام السفلية والاحجار الغشيمة بين الجدران .

**أكرم ساطع**

مفتش آثار المنطقة الشماليه

# المصادر

محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ٦٧ طبعه دمشق سنه ١٩٣٨
بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلاميه ج ٢ طبعه بيروت سنه ١٩٤٩
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٩ طبعة القاهرة سنه ١٣٤٨ هـ
أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ طبعه القاهرة سنه ١٣٤٨ هـ
ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٠٢ طبعه القاهرة سنه ١٣١٠ هـ
ابن الشحنه : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص ١١٣ طبعة بيروت سنه ١٩٠٩
كامل الغزي : نهر الذهب ج ٢ ص ٢٢٩ طبعه حلب
راغب الطباخ : أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٢٥ طبعه حلب ١٩٢٣

Ernest herzfeld : Materiaux pour un Corpus inscriptionum Arabicarum II partie : Syrie du Nord. « Le Caire 1956 »

Bulletin d'etudes orientales tome XIII anrée 1949 - 1951
Les professeurs de madrassa à Alep.

الصورة رقم (١) الواجهتين الشمالية والغربية قبل الترميم

الصورة رقم (٢) الواجهة الشرقية قبل الترميم



الصورة رقم (١) حنية المحراب وأحد العمودين بتاجه الكورانثي المتطور والتراكيب الهندسية ذات الاشكال النجمية المتعددة الاضلاع



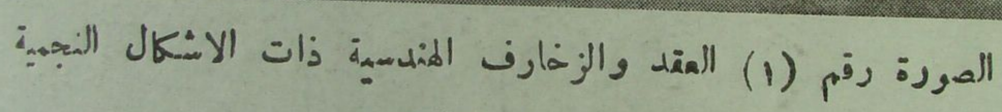
الصورة رقم (٢) تاج عمود المحراب الكورانثي المتطور



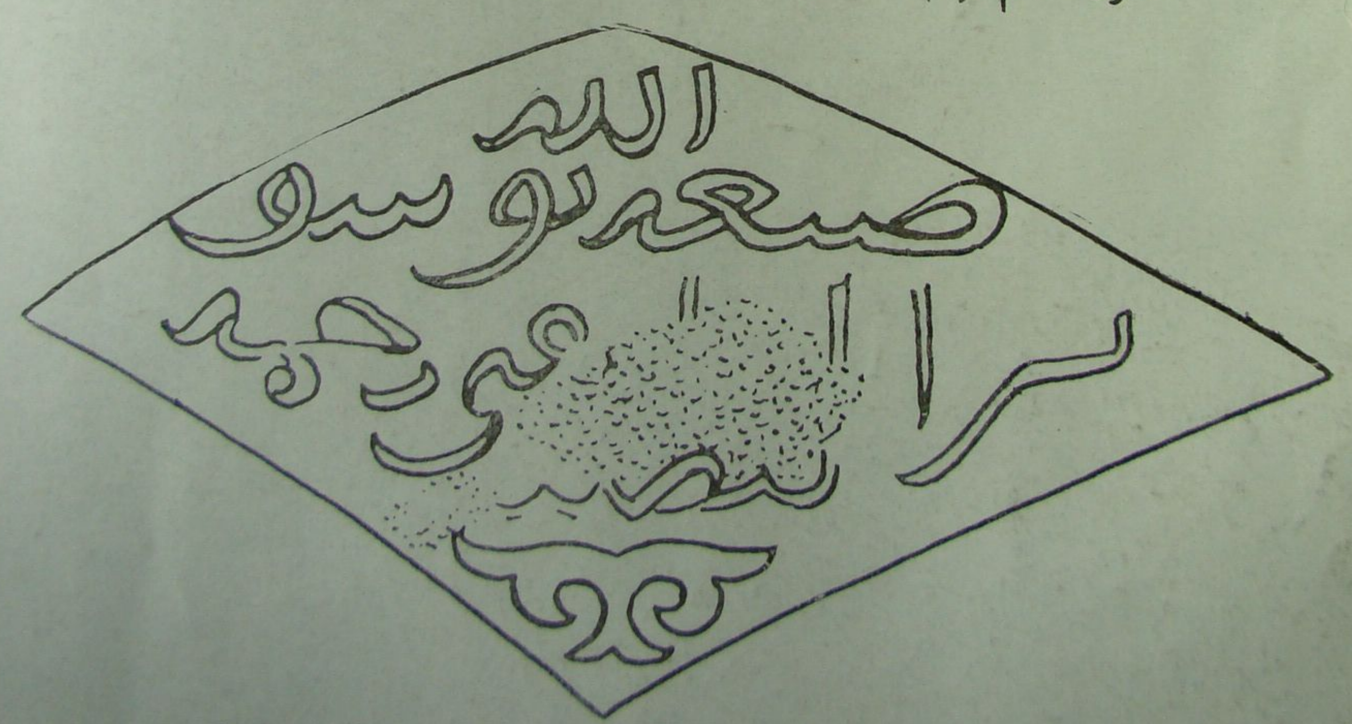
الصورة رقم (١) مدخل المدرسة وبابها تعلوه المقرنصات والصدفة

الصورة رقم (٢) المدخل الرئيسي في الواجهة الشمالية

اللوح رقم (٤)



الصورة رقم (١) العقد والزخارف الهندسية ذات الاشكال النجمية



الصورة رقم (٢) اسم المهندس المعماري (نقلا عن هرزفيلد)

الصورة رقم (١) القبة التي تعلو قاعة التدريس تشاهد فيها الكوات الصغيرة وزخارف هندسية من الآجر .

الصورة رقم (٢) نهاية الرقبة من القبة التي تعلو قاعة التدريس حيث يبدو جانباً من الزخارف الهندسيه فوق الكوات الصغيرة .

↓



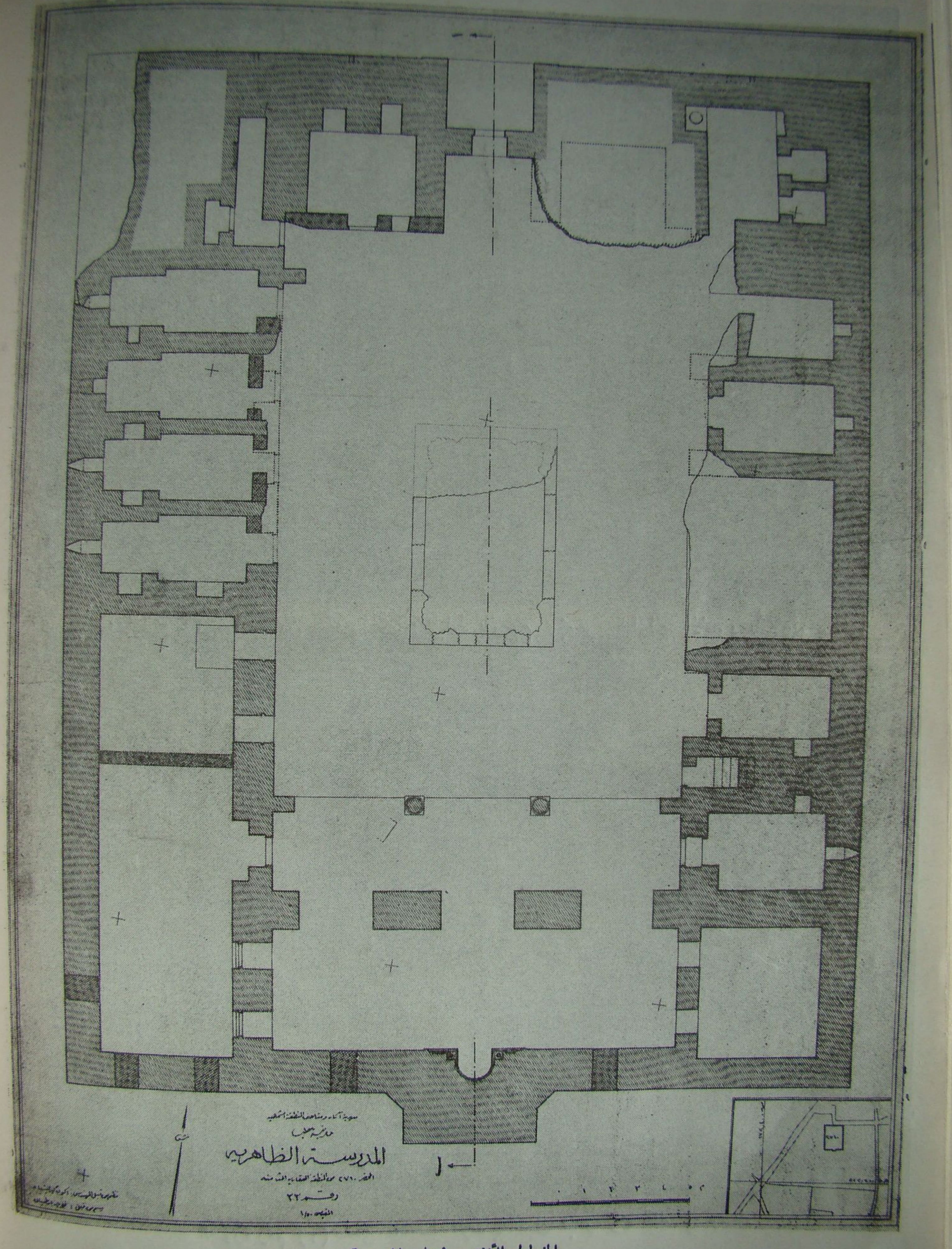


الصورة رقم (١) عقود الرواق الجنوبي وأعمدته

الصورة رقم (٢) أحد تيجان أعمدة الرواق الجنوبي

الصورة رقم (١) جانب من صحن المدرسة المبلط بالرخام وبحجر البازلت الاسود بأشكال هندسية

الصورة رقم (٢) صحن المدرسة الرحب حيث تبدو بركة الماء في وسطه




المخطط الأفقي لبناء المدرسة